(السياق وأثره في تحديد الدلالة على المعنى)

د. إبراهيم الطاهر الشريف
قسم اللغة العربية
كلية الآداب - الزاوية

اللغة ظاهرة اجتماعية تميّز بني الإنسان من غيرهم من المخلوقات الأخرى وبها وبالعقل جعل الله الإنسان خليفة في الأرض.

وهي وسيلة الاتصال بين الشعوب ووعاء نقل التجارب والنظم والعقائد والاتجاهات الفكرية والثقافية والعلمية والأدبية والفنية والاقتصادية وغيرها.[1]

ومن هذه الوظيفة اهتم الدارسون باللغة من جوانب عدة، وفي مقدمة هذه الجوانب مفهوم هذه اللغة لتحديد ماهيتها وأبعادها.

ورد في معجم لسان العرب لابن منظور قوله: " واللغة بالضم فهي أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، وهي فعلة من لغوت أي تكلمت، أصلها لغوة".[2]

ولغوة هذه بضم اللام وسكون الغين وفتح الواو، ثم نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح الذي قبلها، وحذفت الواو الساكنة تخفيفا فأصبحت (لغة).

ومن هذا المعنى اللغوي اصطلح على اللغة بأنها : نظام من الحروف والكلمات والصيغ والعلاقات النحوية في مجتمع معيّن، يتعلمها الفرد اكتسابا وتدرس عن طريق مناهج متعددة لكل من الدلالـة والأسلوب والمعجـم والتشكيل الـصوتي والنحـو والصرف.

وقد عرّفها ابن جني بقوله:" إنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[3]، وعرفها الدكتور تمام حسان بقوله: "اللغة إذن منظمة عرفية ترمز إلى نشاط المجتمع، وهذه المنظمة تشتمل على عدد من الأنظمة يتألف كلّ واحد منها من مجموعة من المعاني تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المباني المعبّرة عن هذه المعاني، ثم من طائفة من العلاقات".[4]

فاللغة عبارة عن نظام من الرموز الصوتية المخزونة في أذهان أفراد الجماعة اللغوية، والتي يستدعيها الموقف الكلامي، أو هي نظام من العلاقات

يتمّ في إطار تكوين وحدات لغويّة ذات معنى، وهذه الوحدات تقوم بوظيفة الاتصال بين الكاتب والقاريء أو بين المتكلم والمخاطب، ويشترك فيها الأوّل بطريقة إيجابية بوصفه مرسلا، والثاني بطريقة سلبية بوصفه مستقبلا.

وهذا الاتصال هو الذي يمكن الإنسان من التفاعل مع العالم المحيط به سواء أكانت هذه اللغة منطوقة أم مكتوبة، وعليه فإن أي نشاط لغوي مقصود لابد له من موافقة الجماعة اللغوية قبل أن يعتمد.

ويكون هذا الاتصال بكلام متصل ويندر في الاستعمال العادي للغة أن يتم الاتصال بكلمة واحدة فقط من المتكلم أو الكاتب يعبر بها عمّا يدور في ذهنه لأن الكلمة لفظ مفرد لا يدل إلا على معنى مفرد، وقد يكون عامّا وغير محدد ويعتريه شيء من الغموض.

فالاتصال يتمّ بمجموعة من الكلمات المكتوبة أو المنطوقة، وفي النص المكتوب يتمّ الاتصال بين القاريء والكاتب، ويتحقق بوجود نص جيّد وقاريء لهذا النص يكون متمكنا من لغته، وعلى علم تامّ بالمستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي أو المعجمي، كما يجب أن يكون النص في إطار النظام اللغوي الذي يربط بين صاحب النص والمتلقي.[5]

أما الاتصال بين المتكلم والسامع فيتحقق بجملة من الأمور المهمة نذكر منها الوحدات اللغوية في الجملة أو التركيب، وتحديد المعنى المراد من لفظة معيّنة داخل النص المنطوق، وبيان المراد منها من حيث الحقيقة أو المجاز فتكون الكلمات التي تمثل جانب الخطاب واضحة الدلالة توصل إلى القصد يستحضرها المتكلم، ويتعرف عليها السامع.

وهناك أيضا وحدات غير لغوية لها دور كبير في تحقيق الاتصال بين المتكلم والسامع، ومصاحبة للخطاب، نذكر منها على سبيل المثال: شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي، وشخصيات الجمهور وعلاقتهم ببعض والمكان الذي يوجد به الخطاب اللغوي، ونوع هذا الخطاب، ثمّ حالة الأشخاص النفسية.

فكل الأمور السابقة لها دور كبير في توجيه الأداء اللغوي وتغيير أفكار الخطاب اللغوي أحيانا حتى تصل إلى السامعين.

ومن هنا ظهرت قضية المعنى، والتي تعدّ من أهم القضايا التي اهتمّ بها الدارسون قديما وحديثا، فجمعوا هذه اللغة، وبحثوا عن دلالة ألفاظها ووضعت في مصنفات ضخمة سميت بالمعاجم، ومن أهدافها حفظ هذه اللغة وضبطها ليتم فهمها فهما جيدا. وأصبحت هذه القضية غاية الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية قديما وحديثا، وأشغلت المتكلمين جميعا على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية لأن الحياة الاجتماعية وما تشاهده من تطوّر تجعل الفرد يبحث في معنى هذه الكلمة أو تلك، أو هذا التركيب أو ذلك ليتم فهمه لهذه الحياة، ومن ثم إمكانية تكيفه فيها.

وقد اقتصرت دراسة اللغويين للمعنى في أوّل الأمر على الناحية التاريخية الاشتقاقية للألفاظ، فتقارن الكلمة بنظيراتها في الصورة والمعنى، ويتم إرجاعها إلى أصل معين يوضح دلالتها المفردة، وبذلك قالوا بأن اللفظة الواحدة لها أكثر من معنى متجاهلين أحيانا الجانب الاجتماعي وأثره في تطور الدلالات والصور، ومتجاهلين أيضا الدلالات الحقيقية والمجازية، والمظاهر الإنسانية الأخرى ذات الأثر في التغير الدلالي ؛ أي: أهملوا بعض العوامل التي لها دور كبير في إيضاح المعنى المراد.

ثم تطورت الدراسة، وأدرك أهل اللغة أن الكلمة توضع أوّلا للمعنى الحقيقي العرفي، ولكن نتيجة لتطور الحياة العامة وتعدّد تجارب المجتمع البشري كانت هناك محاولات لإثراء اللغة بكلمات أخرى جديدة، أو بالانحراف بالمعنى الحقيقي للكلمة إلى معان أخرى فنية بيانية تسمى المعاني المجازية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل . . . ومن ثم يصبح معنى الكلمة متعددا وترصد هذه المعاني المتعددة في المعجم فتكون الكلمة بين صفحات هذا المعجم محتملة لكل معانيها المتعددة.[6]

ومن الصعب استخلاص المعنى المراد من اللفظة داخل التركيب بالرجوع إلى دلالة تلك اللفظة في المعاجم ؛ لأن المعاجم أهملت هذا التطور الذي شهدته اللغة بشكل كبير، ولم توضح لنا بدقة العنصر الاجتماعي والتاريخي . . . لنشأة دلالة معينة للفظة معينة.

وحتى يتضح المعنى المراد من الألفاظ والتراكيب اللغوية لابد من دراستها على جميع المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، ولا يكفي أن ننظر في المعاجم للبحث عن دلالات تلك الألفاظ لنصل من خلالها إلى معنى التركيب، وذلك لوجود دلالات عامة ومتعددة ومبهمة لهذه الألفاظ، ولأن الكلمات تأخذ معناها من معاني الجمل والتراكيب التي وجدت فيها، ولا يكون معنى الجملة هو مجموع معاني تلك المعاني المفردة للكلمات الداخلة فيها.

فمعنى الكلمة يختلف عن معنى الجزء التحليلي في التراكيب لأنّ معنى الجزء التحليلي وظيفي، ومعنى الكلمة معجمي، والعلاقة بين الجزء وبين وظيفته لدى المتكلم نصية اجتماعية، والعلاقة بين الكلمات وبين معانيها علاقة عرفية محدّدة بالاستعمال، ومعروفة في المعاجم. (7)

وللكلمة ثلاث مرتكزات رئيسة هي الصيغة (سمعية أو بصرية)، والمعنى الذي يعتمد على العلاقات القائمة بين التعبيرات اللغوية، والدلالة التي تربط هذه التعبيرات بالواقع. (8)

وقد أدرك عبد القاهر الجرجاني قصور الدلالة في الألفاظ المعجمية لوجود الحقيقة والمجاز واتصاف هذه الألفاظ بالعموم والشمولية والإبهام خارج النص، فقال: "وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ نجد لذلك المعنى دلالة ثانية". (9)

وقال أيضا:" الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد". (10)

وعلى ذلك فقد فرّق عبد القاهر الجرجاني بين المعنى ومعنى المعنى بقوله: " أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ". (11)

وقد أشار عبد القاهر إلى أهمية التعليق الذي هو إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمّى بالقرائن اللفظية من صوتية وصرفية وغيرهما

وبالقرائن المعنوية والحالية، كما اهتمّ بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وتركيب، فقال:"واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعتريه الشك أن لا نظم في الكلم ولا تركيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"[12]، وقوله:" اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تتركب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس". [13]

وتعدّ هذه المبادرة من العلاّمة عبد القاهر الجرجاني بدراسة النظم، وما يتصل به من بناء وترتيب وتعلق من أهم الجهود التي بذلت في مجال فهم طرق التركيب اللغوي، والأساس في ظهور نظرية السياق التي تركز على موقع الكلمة أوالجملة وصلتها بما قبلها وبما بعدها في سلسلة الكلام المتصل، وترى أن المعنى يفسّر باعتباره وظيفة في السياق. [14]

وكلمة السياق قد استعملت حديثا في معان مختلفة، والمعنى الذي يهم هذا البحث هو معناها التقليدي، وهو (النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم).

والسياق على هذا التفسير يشمل الكلمات والجمل السابقة واللاحقة بل القطعة جميعها أو الكتاب كله أحيانا كما يتضح في التعبير القرآني.

وتقوم هذه النظرية على الفكرة التي ذكرها اللغويون القدماء، وهي: (لكل مقام مقال).

ويقصد بالمقام: " الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عباراته على صورة مخصوصة دون أخرى ". [15]

وهذا المقام هو الأساس المتميز من أسس تحليل المعنى، وهو المرتكز الذي يدور حول علم الدلالة الوصفية، وهو أيضا الأساس الذي يبنى عليه الوجه الاجتماعي. [16]

وللدراسات اللغوية الحديثة اهتمام خاص بقضية المعنى، وتظهر هذه الأهمية من اعترافهم باللغة كظاهرة اجتماعية نتيجة لتشابك العوامل المختلفة في إطار سياق الثقافة الشعبية من عادات وتقاليد وغيرهما، وبذلك يتحدّد المعنى عندهم من ثلاثة عناصر هي: [17]

- المعنى المعجمي للكلمة : وهو متعدّد ومحتمل وعام خارج السياق، وواحد فقط في السياق لوجود القرائن التي تعين على تحديد المعنى، وتجعل للكلمات دلالات خاصة في بيئة النص المنطوق بعيدة عن الاحتمال وصفة العموم.
- والمعنى الوظيفي : وهو وظيفة الجزء التحليل في النظام أو في السياق.
- والمعنى الاجتماعي: وهو يتحدد بدلالات الكلمات اجتماعيا من خلال تعدد الأمور التي يبني عليها المجتمع ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، ويفهم كل الظروف المحيطة بالنص المنطوق وبوقوع الاستجابة بناء على المناسبة التي يقال فيها النص. (18)

وتعدّ دراسة تشومسكي لقضية المعنى أحدث ثورة في هذا المجال، وتتضح هذه الثورة اللغوية من خلال نقده للمنهج البنيوي، حيث يرى أن المنهج البنيوي غير قادر على بيان العلاقات السياقية بين الجمل والتراكيب لاشتراك جملتين أو أكثر في الشكل مع الاختلاف الواضح في المعنى. (19)

وقد ذكر تشومسكي الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي ويعني بهما: معرفة المتكلم بلغته، واستعمال هذه اللغة في حياة المتكلم اليومية،(20) وهما يمثلان الأساس في النظرية اللغوية عند تشومسكي، وسببا في نشأة مصطلحي البنية العميقة والبنية السطحية.(21)

واهتم تشومسكي بالجانب الدلالي، ويظهر ذلك واضحا في دراسته للحالات التي يحدث فيها انكسار لعنصر الاختيار، ويتضح ذلك في الجملة التي لا يتصوّر وقوعها كأن تقول: أكل الولد بابا، فعنصر الاختيار في هذه الجملة غير موجود لأن الولد لا يأكل الباب.(22)

وحتى تتضح معالم النظرية السياقية يجدر بنا أن ندرسها على جميع المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، وبيان الدلالة اللغوية وغير اللغوية للكلمات مع التوضيح بأمثلة مناسبة، وذلك لمعرفة دور هذه النظرية في تحديد المعنى المراد من التركيب.

أولا- الصوت والسياق :

علم الأصوات هو العلم الذي يدرس الأصوات من حيث مخارجها وصفاتها، ومن حيث وظيفتها في الاستعمال اللغوي.

إنّ أي لغة من اللغات لا تتمّ دراستها دراسة دقيقة، وبخاصة عند توضيح المعنى وتحديده من دون دراسة أصواتها؛ لأن دراسة المعنى يعتمد على خواص ومظاهر صوتية معينة، وعليه يجب أن تكون هذه الأصوات مفهومة وواضحة ومركبة على نسق معيّن يتوافق مع البيئة اللغوية الواحدة.[23]

وهناك فرق كبير بين الكلام المنطوق المباشر من المتكلم إلى السامع، وبين الكلام المكتوب من حيث دراسة أصواته، وإبراز مظاهره وخصائصه وبالتالي معرفة دوره في المعنى بناء على السياق والمقام.

فمن السهل على الفرد دراسة الكلام المنطوق وإبراز خصائصه ومميزاته الصوتية والتي تمثّل أحيانا عاملا أساسا في بيان المعنى والكشف عن دقائقه وأسراره، وميدانه الخطاب المباشر بين المتكلم والسامع عن طريق التعامل اليومي بين الأفراد والجماعات، أو التمثيل المسرحي.

ومن أهم هذه الخواص الصوتية التنغيم وموسيقى الكلام التي تغيّر في نطق الكلمة أو الكلمات بدرجات صوتية متفاوتة تمنح الكلام المعاني المتنوعة بحسب السياقات المختلفة؛ لأن الإنسان حين ينطق بلغته لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات.[24]

وتغيّر النغمة الصوتية يتبعه تغيّر في الدلالة في كثير من اللغات [25]، وبقدر معيّن في لغتنا العربية، فمن اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبرى، إذ تختلف فيها معاني الكلمة تبعا لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها، ومن أشهر هذه اللغات اللغة الصينية، إذ قد تؤدي فيها الكلمة الواحدة كثيرا من المعاني، ويتوقف كل معنى على درجة الصوت حين النطق بهذه الكلمة.[26]

وفي العربية يتّضح دور التنغيم في فهم بعض الأساليب والتراكيب اللغوية فقد نجد لعبارة (صباح الخير) على سبيل المثال الكثير من المعاني المختلفة، فقد لا يكون لها إلا معنى التحية الصباحية المعروفة، وقد يفهم منها معنى التهديد أو معنى السخرية والتهكم . . . وذلك بناء على نغمة الصوت، والمواقف السياقية التي تقال فيها، إذا أدخل المتلقي في الاعتبار العناصر الاجتماعية غير اللغوية.

ولهذا التنغيم الصوتي دور آخر في مجال الدراسات النحوية، فتوجيه الإعراب قد يتم بناء على أساس المميزات الصوتية، مع النظر بعين الاعتبار إلى السياق

الذي يقال فيه الكلام، ويتضح هذا الدور في التفريق بين الجملة التقريرية والجملة الاستفهامية، فالنطق يحدّد أن الكلام استفهام مثلا إذا احتمل أن يكون استفهاما أو تقريرا، وهذا واضح في النصوص المنطوقة مباشرة من المرسل إلى المتلقي .

ومن الظواهر الصوتية أيضا السكتة أو الوقفة التي لها دور معين في تحديد أنماط الجمل والعبارات، فقد تعبّر عن نهاية الجملة أو التركيب، أو توحي بأن الكلام غير تام، وتنتظر ما يكمله، كقولك: (محمد القائم)، فقد تعرب كلمة القائم خبرا، وقد تعربها صفة وتنتظر الخبر المتمم للفائدة.

كما يتضح دورها أيضا في الفصل والوصل، كما في قولك: (لا وبارك الله فيك)، فقد تحذف الواو لورود سكتة صوتية معينة تفصل بين أداة النفي والجملة التي بعدها، تغني عن وجود هذه الواو.[27]

كما يتمّ توجيه الإعراب أحيانا من خلالها حيث قد توجد سكتة في النعت *المقطوع تفصل بين النعت والمنعوت*.[28]

وكذلك " من مظاهر هذه الدلالة الصوتية النبر، فقد تتغيّر الدلالة باختلاف موقعه من الكلمة".[29]

فالنبر الذي هو الضغط على مقطع معيّن من الكلمة قصد زيادة وضوحه في السمع يعدّ عاملا من عوامل تحديد المعنى وتوضيحه، ولكنه بقدر أقل من التنغيم، فقد يقع النبر قويّا على جزء من كلمة في جملة معينة، وقد تتغير مواقع النبر، أو تتغيّر درجة قوته بحسب الحالة المعيّنة، وإبراز المعنى المطلوب ويطبق هذا النهج بخاصة إذا كان المراد تأكيد صيغة من الصيغ في تركيب معيّن.[30]

كما أن التنوين الذي هو ظاهرة صوتية يقوم بدور دلالي، ويتضح ذلك في الفرق بين قولك: (أنا قاتل غلامك) بجرالغلام بالإضافة أي من دون تنوين المضاف، وبين قولك: (أنا قاتل غلامك) بتنوين قاتل ونصب غلامك على أنه مفعول به لاسم الفاعل، حيث يفهم الزمن الماضي في الأولى، والزمن المستقبل في الثانية.

كما أنه لا يخفى على أحد أن الوقف والوصل في القرآن الكريم لهما أثر ملحوظ في تحديد المعنى، وكذلك التفخيم والترقيق، مثل كلمة (طين) و(تين) ووضع صوت مكان صوت مثل (القبص) وهو الأخذ بأطراف الأنامل و(القبض) وهو الأخذ بالكف كلها.

كل هذا يبيّن لنا دور الصوت في الدلالة، مع النظر إلى دور السياق المهم في هذا الجانب . هذا في الكلام المباشر كما أسلفت.

أما في الكلام غير المباشر، وهو النصوص التي تصل إلينا مكتوبة، فمن الصعب جدّا أن نبرز الخصائص الصوتية له، وحتى يتأتى شيء من ذلك لابد لنا من إعادة المكتوب إلى زمن نطقه في الحياة، وتصور الموقف الكلامي، وبعض عناصره الصوتية التي تحدّد المعنى، ثمّ تحليلها، وقد لا نوفق في هذا وقد نوفق إلى درجة محدودة، لأننا لم نسمع نطق هذا الكلام مباشرة من مصدره الأوّل وبالتالي يخفى علينا من خصائصه الصوتية الشيء الكثير وما يبرزه من معنى بحسب السياق الذي قيل فيه النص.

ومن هنا كان اختلاف النحاة في بعض المفردات والتراكيب التي وصلت إلينا مكتوبة – وهو كثير- نذكر منه على سبيل المثال قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

ثمّ قالوا: تحبّها قلت بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

فقيل: أراد أتحبّها؟ وقيل: أنه خبر؛ أي أنت تحبها، ومعنى (قلت بهرا) : قلت أحبها حبّا بهرني بهرا؛ أي غلبني غلبة، وقيل: معناه عجبا [31]. وسبب هذا الاختلاف صعوبة إدراك العنصر الصوتي وهو التنغيم في هذا الكلام المكتوب.

وامتدّ هذا الاختلاف إلى النصوص القرآنية المنقولة بالتواتر فهي وصلت إلينا مكتوبة مسموعة، نذكر من ذلك ما يلي:

قوله تعالى:﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك، تبتغي مرضاة أزواجك﴾[32]

حيث يرى بعضهم أن جملة (تبتغي) جملة استفهامية محذوفة الهمزة والتقدير: أتبتغي؟ ويرى الدكتور كمال بشر بأنه ليس هناك من داع إلى تقدير محذوف، إذ

الكلام مفهوم من دون هذا التقدير؛ ولأن التقدير عمل افتراضي لا يفيد في الموضوع شيئا على الإطلاق، ويفهم ذلك من التنغيم المصاحب للقراءة. (33)

كما تؤدى علامات الترقيم في النصوص المكتوبة دوراً الترقيم دورا مهما في تحديد المعنى إلى حدّ كبير بناء على السياقات المختلفة، فتقوم هذه العلامات بتبيين القطع المتماسكة في السياق، وتحديد المعنى، كما يعرف من خلالها أسلوب التعجب، وأسلوب الاستفهام، وأسلوب التقرير، وغير ذلك لو اتبعت أصول الكتابة الصحيحة.

ثانيا- الصرف والسياق:

الصرف قواعد يعرف بها كيفية صياغة الأبنية العربية، وأصولها التي ليست إعرابا ولا بناء، والمقصود بالأبنية هيئة الكلمة، ويستعان بعلم الصرف على تحويل الكلمة إلى أبنية مختلفة لاختلاف المعاني، كالتصغير والنسب والجموع المختلفة والمصادر والمشتقات كاسم الفاعل واسم المفعول، وغير ذلك.

والذي لا شك فيه أن الصرف لا غنى عنه في الدرس العربي على وجه الخصوص. (34)

وما يهمنا هنا قضية المعنى، فهناك نوع من الدلالة يستمد عن طريق الصيغ الصرفية وبنيتها. (35)

فالفعل (سمع) يدلّ على وقوع الحدث في الزمن الماضي، وبزيادة الهمزة في قولك: (أسمعته) تدل على التعدية، وزيادة الهمزة والتاء في قولك: (فاستمع) تدلّ على المطاوعة، والفعل (قطع) يدل على وقوع الحدث في الزمن الماضي وبزيادة التضعيف في قولك (قطّع) تدلّ على التكثير والمبالغة.

وزيادة التضعيف قد تدل على السلب كما في قولك: (قشّرت الفاكهة) أي أزلت قشرتها.

كما تتصف معاني بعض الأبنية الصرفية بالتعدّد والاحتمال، فقد يكون للبناء الصرفي الواحد أثر من معنى، وأكثر من وظيفة، ما لم يحدّد ذلك بقرينة معيّنة تبيّن واحدة من تلك المعاني في سياق معيّن، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

= اللفظتان : (أحمد، ويشكر) كل لفظة منهما تصلح أن تكون فعلا واسم علم.

= لفظة : (مختار) تكون اسم فاعل، وتكون اسم مفعول.
= لفظة : (مخرج) بضم الميم وفتح الراء من الفعل أخرج يخرج تكون اسم مفعول، واسم زمان، واسم مكان، ومصدرا ميميا.
= لفظة : (إقامة) من الفعل (أقام) تكون مصدرا صريحا، وتكون، *اسم مرة بزيادة كلمة (واحدة)*.

ومن هنا يبرز الدور الكبير للسياق الذي يحدّد واحدا من المعاني السابقة داخل التركيب، ويبعد بقية المعاني الأخرى المحتملة.

وعند دراسة الزمن في بعض الصيغ نلاحظ ما يلي:

إن الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وبقية الأزمنة الأخرى المتفرّعة منها لا يفهم من الصيغة وحدها، وإنما يفهم من سياق التركيب، ومقامه الواقع فيه، فصيغة (فعل) عندما تقع في سياق الإخبار عن أمر حدث في الماضي دلت هذه الصيغة على الزمن الماضي، وإن كانت من ألفاظ العقود مثل بعت واشتريت قد تدلّ على الحال، وإن وقعت في سياق الشرط مثلا دلت على الزمن المستقبل، وهكذا، وصيغة (يفعل) كذلك لا يفهم منها الزمن الحاضر أو المستقبل إلا بسياق الجملة وقرائن أحوالها فقد تدل هذه الصيغة على الزمن الماضي في سياق النفي بالحرف (لم)، وقد تقترن بلفظة أخرى تحدد الزمن المطلوب في سياق النص.

وعلى ذلك يتبيّن لنا مدى أهمية السياق العام الذي يرد فيه الفعل في توجيه المعنى الزمني للصيغة المفردة أو المركبة.

ثالثا- النحو والسياق :

النحو هو العلم الذي يهتمّ بدراسة التراكيب اللغوية، فيدرس أحكام الكلمة عند تركيبها مع غيرها من الكلمات الأخرى ؛ أي أنه يدرس الجملة، ويبحث عن التغيّرات التي تطرأ على أواخر الكلمات بحسب العوامل المختلفة.

وهناك علاقة وثيقة بين الإعراب والمعنى، بل هما متلازمان في الدرس النحوي على وجه الخصوص، ولا نستطيع أن نصل إلى الإعراب الصحيح من دون وضوح المعنى المراد من التركيب.

والعلاقات السياقية بين أجزاء الباب النحوي كباب الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية، أو باب الشرط، أو باب الاستثناء، أو باب الحال مثلا كلّ ذلك له دور كبير في تحديد المعنى مع ضرورة الاهتمام بالقرائن الأخرى والسوابق واللواحق في النص؛ لأننا لو نظرنا على سبيل المثال إلى الأدوات في العربية وهي كثيرة لوجدنا الواحدة منها تستعمل لعدد من المعاني نذكر منها (ما)، فهي تكون أداة نفي، وموصولة، ومصدرية، وكافة عن العمل، وتعجبية، وشرطية واستفهامية . . . لأن الأدوات ليس لها معنى في نفسها وإنما معناها في غيرها يتضح من اللفظة الداخلة عليها.

كما أنّ الاسم المرفوع يصلح أن يكون مبتدأ أو خبرا، أو أن يكون فاعلا أو نائب فاعل، أو أن يكون اسما للأفعال الناسخة، أو خبرا للحروف الناسخة، أو أن يكون تابعا لواحد مما ذكر.

وهناك جمل لها محل من الإعراب، فقد تعرب في محل رفع فاعلا أو نائب فاعل، أو خبرا للمبتدأ، أو تعرب في محل نصب حالا، أو تعرب نعتا في محل رفع أو في محل نصب، أو في محل جر بحسب إعراب المنعوت.

كما أن اجتماع المعرفتين في الجملة الاسمية يجعل الاحتمال واردا في إعراب الأوّل مبتدأ أو خبرا، نحو قولك: (محمد القائم).

فمعاني المفردات والجمل خارج السياق متعددة ومحتملة، فإذا دخلت هذه الألفاظ والجمل في سياق معيّن يحدّد معناها بحيث لا يكون في الذهن بعد ذلك إلا معنى واحد فقط زال هذا التعدّد والاحتمال، واتضح نوع هذا التركيب واستطعنا الوصول إلى الإعراب السليم.

رابعا- الدلالة المعجمية:

لكي يستفيد علم دراسة المعنى السياقي من مفردات المعجم يشترط أن تكون هذه المفردات لها معنى في نفسها، وأن تؤدي معنى عندما تتركب مع غيرها.

وكما ذكرنا – فالكلمة في المعجم في حالة الإفراد لا يفهم معناها معزولة عن السياق والمقام لأنه يتعدّد معنى الكلمة بتعدّد احتمالات القصد، وتعدّد احتمالات القصد يؤدي إلى تعدد المعنى فيكون لها – بحسب المواقف المختلفة – معنى لغوي، ومعنى ثقافي، ومعنى اجتماعي، ومعنى نفسي، أو عاطفي... والسياق

وحده هو الذي يساعدنا على إدراك التبادل بين المعاني الموضوعة العرفية والمعاني الأخرى العاطفية والانفعالية.

وسندرس هنا بعض هذه المعاني المحتملة للمفردات والتراكيب بالرغم من صعوبة تحديد المعنى أحيانا، والدليل على صعوبة تحديد المعنى ما نلاحظه من خلاف في حياتنا اليومية، فهو يقع بين أقرب الناس إلى بعضهم، يقع بين الأب وابنه، وبين الزوج وزوجه، وبين الصديق وصديقه، كما تحدث خلافات في مجالات السياسة، والاجتماع والفقه، والقضاء، والتاريخ، وبعض العلوم الأخرى، بناء على فهم الكلمة الواحدة أو التركيب بأكثر من صورة.

فتصدر منا بعض العبارات التي تدل على ذلك، كأن يقول أحدنا للآخر: ماذا تقصد؟ وما هذا؟ وماذا قلت؟ وماذا تعني؟ افصح عن كلامك، أنا لا أفهمك، أنت لم تفهمني . . وعندما نقرأ تركيبا معيّنا، أو نسمعه ونريد تحليله لفهم معناه لابد لنا من عدم إغفال الجوانب الآتية:

1- المعنى الأساس، وهو المعنى العرفي المعجمي .
2- المعنى التطبيقي أو السياقي الذي يتحدّد باختيار الكلمات، وما بها من نبر وتنغيم، ومن سوابق ولواحق، ونظام ترتيب هذه الكلمات، وموقعها في الجمل والتراكيب، وحركات الجسم، والموقف اللغوي.
3- المعنى العاطفي أو الانفعالي الذي يحدثه النص بناء على ما سبق.

ومن هنا يبرز الدور الحيوي المهم الذي يلعبه السياق في تحديد المعنى بظهور المعاني السياقية التالية: السياق اللغوي، والسياق العاطفي، والساق بحسب الموقف، والسياق الثقافي، والسياق في التعبير القرآني.

أوّلا – السياق اللغوي:

يقصد به تلك المفردات والتراكيب التي تعطي دلالة محدّدة نتيجة الظروف والملابسات والعناصر اللغوية .

فرغم تعدّد المعاني للكلمة الواحدة نجد أنّ ما يدور في ذهن المتلقي هو المعنى الذي يحدّده سياق النص فقط، وتختفي بقية المعاني الأخرى المحتملة وبالتالي فإنّ معاني الكلمات والتراكيب لا يهتدى إليها إلا بتحليل المواقف

المختلفة التي تقال فيها الكلمة أو يتمّ فيها التركيب اللغوي، والأمثلة على ذلك كثيرة تذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

إن المعاني المحتملة لكلمة (ضرب) بناء على المواقف والسياقات المختلفة التي تقال فيها كثيرة جدا نذكر منها ما يلي:

إذا كان الموقف مشاجرة بين طرفين، أو اعتداء شخص على آخر، أو عقابا له، تستعمل كلمة (ضرب) في قولك: (ضرب الأوّل الثاني) بمعنى ضرب أو عاقب أو ما شابه ذلك من المعاني الحقيقية لهذه الكلمة.

وإذا كان الموقف يتطلّب تحديد موعد تستعمل الكلمة نفسها بمعنى حدّد في قولك: (ضرب له موعدا).

وإذا كان الموقف هو الحديث عن المعنى لأجل التجارة والكسب، أو الغزو أو ما شابه ذلك تستعمل الكلمة نفسها في قولك: (ضرب في الأرض) بمعنى سعى.

وإذا كان الموقف محاسبة أو حسابا تقول: (ضرب خمسة في ستة)، فتكون كلمة (ضرب) في هذا التركيب بمعنى حسب.

وإذا كان الموقف والسياق يتطلب الحديث عن التحيّر من أمر ما تقول: (ضرب أخماسا في أسداس)، فيكون الفعل (ضرب) بمعنى تحيّر.

وإذا أردنا أن نتحدث عن خلط شيء بشيء آخر فإن الفعل (ضرب) يؤدي هذا المعنى عندما نقول: (ضرب الشيء بالشيء).

وإذا أردنا أن نتحدث عن السرد والحكاية والذكر، وما شابه ذلك فإن الفعل (ضرب) أيضا يؤدي هذا المعنى في نحو: (ضرب المعلم مثلا).

ولننظر إلى مثال آخر من الكلمات، وهو كلمة (عين)، حيث تتعدّد معانيها الحقيقية والمجازية، فهي تدلّ على العين المبصرة، وعلى عين المياه الجارية وعلى الثقب في الإبرة ونحوها، وعلى الشيء ذاته، وعلى الحارس أو الجاسوس، وهكذا، ولكن إذا استعملت في سياق معيّن فإنها لا تدلّ إلا على معنى واحد فقط، وتختفي بقية المعاني الأخرى المحتملة.

ومن هنا ندرك أن المعاني اللغوية للكلمات والجمل والتراكيب لا يهتدى إليها إلا عن طريق السياقات والمواقف المختلفة التي تساق فيها.

ثانيا- السياق العاطفي:

وهو الأثر الذي يتركه اللفظ أو التركيب في النفس من مشاعر وانفعالات مختلفة بناء على ما تحمله تلك الألفاظ والتراكيب من معان متفاوتة.

فالنبر والتنغيم، واختيار الكلمات المناسبة، ونظام ترتيب هذه الكلمات ومواقعها في الجمل والتراكيب، كل هذا قد يكون له قدر في إحداث الأثر – كما وضحّنا ذلك في قولك: (صباح الخير) وما بينته العبارة من معان متنوعة، ومن مشاعر وعواطف بحسب السياق الذي تقال فيه.

وكذلك عندما ننظر إلى الأفعال الآتية: (يغبط، ويحسد، ويحقد) نجدها جميعا تؤدي معنى تمني النعمة، ولكن الغبطة أن يتمنى الفرد مثل ما عند غيره من النعمة، من دون أن يتمنى زوالها عنه، والحسد أن يتمنى الفرد مثل ما عند غيره من النعمة، كما يتمنى زوال هذه النعمة عنه، والحقد أن يتمنى ما عند غيره من النعمة، كما يتمنى أيضا زوال هذه النعمة عن غيره، إلى جانب ذلك إضمار الشر والكراهية له.

فإذا سمعنا الأفعال السابقة لاحظنا وقع كل فعل على النفس وما يبيّنه من مشاعر وعواطف عند النطق به في السياق الواقع به.

ثالثا – السياق بحسب الموقف :

يقصد بالسياق بحسب الموقف: هو المعنى أو الدلالة التي يفرضها الموقف الخارجي الذي تقع فيه الكلمة أو التركيب دون أن يكون هناك تأثر أو انفعال على النفس كما في السياق العاطفي، ويظهر ذلك كثيرا في التراكيب كما في قولك في مقام تشميت العاطس: (يرحمك الله) قصد الرحمة في الدنيا، وقولك في مقام الترحم على المتوفى: (الله يرحمه) قصد الرحمة في الآخرة، فنلاحظ الذي دلّ على هذين المعنيين هو سياق الموقف الذي قيلت فيه كل جملة.

رابعا – السياق الثقافي:

المقصود بالسياق الثقافي هو بيئة النص الخارجية، أو المجموع الثقافي الواحد الذي تستعمل فيه الكلمة أو التركيب؛ لأن ثقافة المجموعة لها دور مهم في تحديد المعنى المراد.

فمثلا كلمة (عملية) لها معنى محدد عند الطبيب الجرّاح حيث تعني عنده العملية الجراحية، لها معنى آخر مخالف عند المحارب، حيث تعني العملية القتالية، أو الغارة الحربية، ولها معنى ثالث عند التاجر، حيث تعني الصفقة التجارية، ولها معنى رابع عند الرياضي، حيث تعني العملية الحسابية، وهكذا.

وكلمة (جذر) لها معنى عند المزارع غير المعنى عند اللغوي، وغير المعنى الذي عند عالم الرياضيات.

وكلمة (بيت) لها معنى عند الشاعر يختلف عن المعنى الذي عند رجل البناء.

والذي يفرق بين هذه المعاني المختلفة هو السياق الثقافي الذي يفرض معنى معيّنا على الكلمة مصدره من المحيط الثقافي الذي نشأت فيه بين المتكلم والسامع، وبمعنى آخر يتمّ تأويل المعنى بناء على تخصص الفرد والمجموعة الواحدة .

خامسا – السياق في التعبير القرآني:

ذكرنا في هذا البحث أن السياق لا يكون في كلمة أو جملة فحسب بل قد يشمل النص أو الكتاب بكامله، وهذا ما يتضح في التعبير القرآني، حيث وضعت الكلمات والتراكيب في نسق معيّن معبّر، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

يقول الدكتور فاضل السمرائي: " في القرآن الكريم آيات وتعبيرات متشابهة مع تعبيرات أخرى، ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة، كأن يكون الاختلاف في حرف أو في كلمة أو في نحو ذلك، وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمرا مقصودا في كل جزئية من جزئياته قائما على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز"(36).

ويضرب الدكتور بعض الأمثلة على ذلك نذكر منها ما يلي:

استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى في السياق الذي يقتضيه حيث ورد في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿إن أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ (37). وفي سورة الفتح قوله: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم

وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا﴾[38].

فقد وردت اللفظة في سورة آل عمران بالباء، وسبب ذلك أن الآية في سياق الحج ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾،[39] فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنهم يزدحمون فيها. وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء اللفظ بالاسم المشهور وهو (مكة) بالميم. [40]

ويقول الدكتور في موضع آخر: " وقد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة خاصة، فتتردد فيه ألفاظ معيّنة بحسب تلك السمة، وقد يكون للسورة كلّها جو خاص وسمة خاصة، فتطبع ألفاظها بتلك السمة". [41]

وقد أتى بأمثلة كثيرة على ذلك من القرآن الكريم نذكر منها ما يلي:

قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إن الله غفور رحيم﴾[42]، وفي سورة الأنعام: ﴿فإنّ ربك غفور رحيم ﴾[43]، فاختار في سورة البقرة لفظ (الله) وفي سورة الأنعام لفظ (الرب)، وذلك لورود لفظ (الله) في سورة البقرة أكثر من ورودها في سورة الأنعام، وأن لفظ (الرب) تردد في سورة الأنعام أكثر مما تردد في سورة البقرة.

وكذلك فإن آية البقرة في سياق العبادة، ولفظ (الله) أولى أن يوضع في هذا السياق؛ لأنه من الألوهية، والألوهية هي العبادة، وأما سياق آية الأنعام ففي الأطعمة، ولفظ (الرب) ألصق بهذا المعنى؛ لأن الرب من التربية والتنشئة فاقتضى السياق وضع كلّ لفظة في المكان الذي وضعت فيه. [44]

وفي نهاية هذا البحث يمكن تلخيص بعض الملاحظات التي اتضحت من خلال دراسة قضية المعنى والسياق على النحو التالي:

*- الكلمات في المعجم معانيها متعدّدة ومحتملة، والمعاني العرفية أي الحقيقية للألفاظ قاصرة عن الوفاء بمطالب التعبير اللغوي، والمهمة العظيمة للمعجم ليست في توضيح المعنى العرفي للكلمة فحسب بل يجب أن يواكب نمو اللغة ومتطلبات الحياة والنهضة والتقدم العلمي، ويكون ذلك بفتح أبواب الاشتقاق والتعريب والترجمة بما لا يتعارض مع القواعد والأصول العربية، ثم بيان الحقيقة والمجاز، مع شرح المعنى وبيان طريقة النطق، وتوضيح الدلالات

الاجتماعية للوصول إلى المعنى الدقيق، ومن الخطأ أن يجعل المعجم كل عصور اللغة عصرا واحدا.

*- السياق يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تتراكم في الذاكرة، ويعطي لها قيمة حاضرة مرتبطة بحالة الأشخاص النفسية وثقافتهم وعلاقتهم ببعض.

*- ارتباط السياق بمقام معيّن يحدّد في ضوء القرائن المختلفة يبعد الألفاظ عن الاحتمال وصفة العموم التي كانت في المعجم، ويكون لها معنى خاص في بيئة النص المنطوق أو المكتوب.

- السياق قوة فاعلة ملازمة للنص المنطوق أو المكتوب، فلا يمكن تصوّر سياق خارج النص، أو تصوّر نص بلا سياق، لأن السياق هوالذي يوضّح دلالة النص.[45].

*- يحقق السياق تماسك النص، ويعمل على ترابط وحداته اللغوية. [46]

*- السياق هو المكان الطبيعي لبيان المعاني الوظيفية للكلمات مع ارتباطها بما قبلها وبما بعدها داخل التركيب.

وأخيرا أرجو أن يكون هذا البحث مفتاح خير لبحوث أخرى في هذا المجال اللغوي تكون أكثر شمولية تعطي لهذا الموضوع حقه، فالكمال لله وحده.

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

الهوامش:

1- انظر علم اللغة العام- الأصوات:128. (تأليف د. كمال محمد بشر، الطبعة السابعة سنة 1980.م، دار المعارف بجمهورية مصر العربية).

2- لسان العرب لابن منظور: مادة (لغو) .(تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، منشورات دار المعارف بجمهورية مصر العربية).

3- الخصائص لابن جني : 1/ 33.(تحقيق محمد علي النجـار، الطبعـة الثالثة سنة 1986.م، الهيئة المصرية العامة للكتاب).

4- اللغة العربية معناها ومبناها:34.(تأليف تمام حسان، منشورات دار الثقافة بالدار البيضاء المغرب).

5- انظر دروس في علم اللغة العام: 8-9. تأليف د. حازم عل كمال الدين، الناشر كلية الآداب، القاهرة بجمهورية مصر العربية الطبعة الأولى سنة 1999.م)

6- انظر اللغة العربية معناها ومبناها :320.

7- اللغة بين المعيارية والوصفية: 126.(تأليف د. تمام حسان، منشورات دار الثقافة بالدار البيضاء بالمغرب).

8- انظر اللغة والمعنى والسياق:62-63. (تأليف جون لايزر، ترجمة د.عباس صادق الوهاب، ومراجعة يوتيل عزيز، دار الشئون الثقافية العامة، آفاق عربية، الطبعة الأولى سنة 1987.م، بغداد- العراق. وفاعلية المشتقات في البنية الأسلوبية للسياق القرآني: 44.(تأليف د.حسين خليفة صالح أطروحة دكتوراه سنة 2003.م مخطوط بكلية الآداب جامعة بغداد- العراق).

9- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: 262. (قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر منشورات مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بالقاهرة جمهورية مصر العربية الطبعة الثالثة سنة1992.م).

10- المرجع السابق:539.

11- المرجع السابق:263.

12- المرجع السابق:55.

13- المرجع السابق:الموضع نفسه

14- وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية حول المعنى وظلال المعنى :99.(تأليف محمد حمد يونس علي، منشورات جامعة طرابلس ليبيا طبع سنة 1993.م).
15- معجم البلاغة العربية :456/1.(تأليف بدوي طبانة منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية الطبعة الأولى سنة 1975.).
16- انظر اللغة العربية معناها ومبناها: 337، ودور الكلمة في اللغة :55.(تأليف ستيفن أولمان، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه د.كمال محمد بشر، مكتبة الشباب بمصر، طبع سنة 1972.م).
17- انظر المرجع السابق:28.
18- انظر اللغة بين المعيارية والوصفية: 123.
19- انظر مدارس اللسانيات: 135. (تأليف جفري سامسون ترجمة محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود – السعودية طبع سنة 1417.هـ).
20- انظر المدخل إلى علم اللغة: 191.(تأليف د.رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي بالقاهرة طبع سنة 1983.م)، والنحو العري والدرس الحديث:115.(تأليف د.عبده الراجحي من دون تاريخ طبعة أو رقمها).
21- انظر النحو والدلالة :36.(تأليف د.محمد حماسة عبد اللطيف طبع سنة 1983.م، القاهرة).
22- انظر المرجع السابق:44-45.
23- انظر علم اللغة العام – الأصوات: 167-168.
24- انظر المرجع السابق: 175.
25- انظر دلالة الألفاظ لإبراهيم أنيس:47.(منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة سنة 1980.م).
26- انظر المرجع السابق: الموضع نفسه، وعلم اللغة العام :175.
27- انظر علم اللغة العام:189.
28- انظر المرجع السابق: 192.
29- دلالة الألفاظ لإبراهيم أنيس: 46.
30- انظر علم اللغة العام: 197.